# تجـــديد الاسلام

## رسالة الأزهر فى القرن العشرين(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

( الأزهر ) ، هذه هى الكلمةُ التى لا يقابلها فى خيال الأمة المصرية إلا كلمة ( الهرم ) . وفى كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفيٌّ من أسرار التاريخ التى تجعل بعضَ الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة ، يُنْسِي مادة اللغة فيها ، ولا يُبقى منها إلا مادةَ النفس ، إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شىء ثابت ثبات الفكرة التى لا تتغير ، مستقرٍ فى الروح القومية استقرارَه فى الزمن ، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته عادته دون ما يشاركه فى هذه المادة ؛ فالحجرُ فى الهرم الأكبر يكاد يكون فى العقل زماناً لا حجراً ، وفناً لا جسما ؛ والمكانُ فى الأزهر يغيب فيه معنى المكان ، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة ، توجد فى المنظور غير المنظور

وعندى أن الأزهر فى زمننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « مصر كنانة الله فى أرضه » ، فملؤه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمى بها من أراد دينَه بالسوء فيُمسكها قبية ويرى بها النصر ، ويجب أن يكون هذا المعنى أولَ معانيهم فى هذا القرن العشرين الذى ابتلى بعلوم عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والالحاد فيها

أول شىء فى رسالة الأزهر فى القرن العشرين ، أن يكون أهلُه قوة إلهية معدَّة للنصر ، مهيأة للنضال ، مسددة للاصابة ، مقدرة فى طبيعتها أحسن تقدير ؛ تُشعر الناس بالاطمئنان إلى عملها ، وتوحى الى كل من يراها الايمانَ الثابت بعناها ؛ ولن يأتى لهم هـذا إلا إذا انقلبوا الى طبيعتهم الصحيحة ، فلا يكون العلم محرفاً ولا مهنة ولا مكسبة ، ولا يكون فى أوراق الكتب خيال ( أوراق البنك ) . . . . بل تظهر فيهم العظمة الروحانية آمرة ناهية فى المادة لا مأمورة منهية بها ، ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مقرر خُلُق فى الحياة قبل أن يكون معلم علم فى الحياة ، لينبث منهم مغناطيسُ النبوَّة يجذب النفوس بهم أقوى مما تجذبها ضلالات العصر ؛ فما يحتاج الناس فى هذا الزمن الى العالم — وإن الكتب والعلوم لتملأ الدنيا — وإنما يحتاجون إلى ضمير العالم

وقد عجزت المدنية أن توجد هذا الضمير ، مع أن الاسلام فى حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هـذا الضمير ، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الانسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأول ما ينبغى أن يحمله الأزهر من رسالته ضمائر أهله

والناسُ خاضعون للمادة بقانون حياتهم ، وبقانون آخر هو قانون القرن العشرين ... فهم من ثمَّ فى أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم المتسلط على المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدنيئة مغلوبة ، ثم ليجدوا فى هذا الانسان أساس القدوة والاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين : قوة التعليم وقوة التحويل . هذا هو سر الاسلام الأول الذى نفذ به من أمة الى أمة ولم يقم له شىء يصده اذ كان ينفذ فى الطبيعة الانسانية نفسها

* * *

ومن أخص واجبات الأزهر فى هـذا القرن العشرين أن يعمل أول شىء لأقرار معنى الاسلام الصحيح فى المسلمين أنفسهم ، فان أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنَّسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو فى حاجة الى تجديد الاسلام . والحكومات الاسلامية عاجزة فى هذا بل هى من أسباب هـذا الشر ، لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً . أما الأزهر فهو وحده الذى يصلح لاتمام نقص الحكومة فى هـذا الباب ؛ وهو وحده الذى يسعُه ما تعجز عنه ؛ وأسبابُ نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الاسلامية ، وكانت فيه عند المسلمين بقيةُ الوحى على الأرض ، ثم كان هو صورة المزاج النفسى الاسلامى المحض . بَيْدَ أنه فرَّط فى واجب هذه الزعامة وفقد القوة التى كان يحكم بها وهى قوة المثل الأعلى التى كانت تجعل الرجلَ من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيَّره المعانى السامية تظهر فيه بأسلوب عملى فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة مُنتزَعة من مثالها مشروحة بهـذا المثال نفسه . والمقيدةُ فى سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى

(١) لم نتكلم فى هـذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر لأن هذه هى مادة الأزهر لا رسالته الجديدة فى رأينا

هي أول مغلوب في صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قــديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر فيتَّبعونهم ويتأسَّون بهم ويمنحونهم الطاعة وينزلون على حكمهم ويلتمسون في سيرتهم التفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة؛ وكان غنى العالم الديني شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال إذ كان — يجد حقيقة الغنى في إجلال الناس لفقره كأنه مُلك لا فقر. وكان زُهده قوة حاكمة فيها الصلابةُ والشدةُ والهيبةُ والسموُّ وفيها كلُّ سلطان الخير والشر لأن فيها كلَّ النزعات الاستقلالية؛ ويكاد الزهدُ الصحيح يكون هو وحده القوة التي تجعل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة في حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لا حقائق متروكة لنفسها يوحِشُ الناسَ منها أنها متروكة لنفسها

* * *

وعلماء الأزهر في الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب، وعملهم أردُّ على الناس من قوانين الحكومة، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الأمور على عِلَلِها وأسبابها؛ فيجب عليهم أن يحققوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحيــة قلوبها وأرواحها، وأن يُعِدُّوا تلاميذهم في الأزهر كما يُعدون القوانين الدقيقة لا طلاباً يرتزقون بالعلم!

أين صوتُ الأزهر وعملُه في هذه الحياة المائجة بما في السطح وما في القاع . . . وأين وحيُ هــذه القوة التي ميثاقُها أن تجعلَ النبوّةَ كأنها شيء واقع في الحياة المصرية لا خبرٌ تاريخي فيهــا . ؟

لقــد أصبح إيمانُ المسلمين كأنه عادةُ الإيمان لا الإيمان نفسُه ، ورجع الاسلامُ في كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد . فرسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة في الشعب ، وأن ينفي عمل التاريخ في الكتب ، وأن يبطل عمل الوثنية في العادات ، وأن يعطي الأمةَ دينها الواضح السمح الميسر وقانونها العملي الذي فيه سعادتُها وقوتُها

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً في قيادة الحركة الروحية الاسلامية ، جريئاً في عمله لهذه القيادة ، آخذاً بأسباب هذا العمل ، ملحاً في طلب هــذه الأسباب ، مصراً على هذا الطلب . وكل هذا يكون عبثاً إن لم يكن رجال الأزهر وطلبته أمثلةً من الأمثلة القوية في الدين والخلُق والصلابة لتبدأ الحالة النفسيةُ فيهم ، فانها إن بدأت لا تقف ؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الانسانية ، مطاعٌ بحكمه فيها ، محبوبٌ بطاعتها له

والمادة المطهِّرة للدين والأخلاق لا تجدها الأمة إلا في الأزهر ، فعلى الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاجة . . .

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الاشراف على التعليم الاسلامي في المدارس وأن يدفع الحركة الدينيــة دفعاً بوسائل مختلفة ؛ أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها ، من مدرسة حرية الفكر . . فنازلاً ؛ والأمة الاسلامية كلها تشدُّ رأي الأزهر في هــذا . وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة : « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » دلَّتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل ، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة

العلماء ورثة الأنبياء ؛ وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدائد ومحن ، ومجاهدة في هداية الناس ، ومراغمة للوجود الفاسد ، ومكابدة التصحيح للحالة النفسية للأمة . فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط

* * *

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق ، وأصبح وجوده هو المعنى المتمم للحكومة المادية لما في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتها وأمنها ورقابتها واستقرارها — اتجهت طبيعتُه الى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين بعد أن يكون قد حقق الذرائع الى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهي وتهذيب الروح الاسلامي والسموِّ به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة ، ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنة فيه لهذه العصور العلمية الأخيرة ؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الاسلام على سنته بين القديم والجديد ، لا ينكره هذا ولا يغيره ذاك ؛ وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودعاته ومبعوثيه من حاملي علمه ورسل إلهامه

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الاسلامية في أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين في ألسنة أزهرية مرهفة مصقولة لها بيانُ الأدب ودقةُ العلم وإحاطةُ الفلسفة ، وإلمامُ الشعر ، وبصيرةُ الحكمة ، وقدرةُ السياسة ؛ ألسنة أزهرية لا يوجد الآن منها لسانٌ واحد في الأزهر ، ولكنها لن توجد إلا في الأزهر ؛ ولا قيمة لرسالته في القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون المتكلمة عنه والحاملة لرسالته . وما هذه البعثات التي قرر الأزهر ابتعاثها إلى أوربا إلا أول تاريخ تلك الألسنة

إن الوسيلة التي نشرت الاسلام من قبل لم تكن أجنحة الملائكة ولا كانت قوة من جهنم ؛ ولا تزال هي هي التي تنشره ، فليس مستحيلا ولا متعذرا أن يغزو هذا الدين أوربا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم . ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة لايجاد الاسلام في الأمة الغريبة عنه حتى إذا وُجد تولّى هو الدعوةَ لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلح هو الأبقى ، وانحازت اليه الانسانية لأنه قانونُ طبيعتها السليمة ، ودين فطرتها القوية ، وقد ظل الاسلام ينتشر ولم يكن يحمله إلا التاجر كما كان ينتشر وحاملهُ الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحا من فلسفة الدين وأسرار حكمته . فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا أعمالٌ مفصّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها ، فهو يمنح الحياة في كل عصر عقلَها الستمليّ الثابت المستقر تنظّم به أحوال النفس على ميزة وبصيرة ، ويدعُ للحياة عقلها العملىّ المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى . وهذه هي حقيقة الاسلام في أخص معانيه لا يغني عنه في ذلك دين آخر ولا يؤدى تأديته في هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور بازاء الشمس نبع النور في السماء

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الاسلام في تلك الأمم ما يستمر ، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت ، والثبات يوجد ما يدوم . وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله: نضّر الله امرءا سمع مني شيئا فبلّغه كما سمعه ، فربّ مُبلَّغ أوعى له من سامع

أما والله إن هذا المبلَّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبلغ

أنا مستيقن أن فيلسوف الاسلام الذي سينتشر الدين على يده في أوربا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهي إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الاسلام وأعماله ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها والافضاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعي فان أول الدين هناك أسلوبُه الذي يظهر به

* * *

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ويجب أن يتحقق بوسائلها من الآن ؛ ومن وسائلها أن يُمالئ بها لتكون مؤتفقا عليه . ويحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم اليه كل مفكر إسلامي ذي إلمام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة ؛ فتكون له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستمين بعلمهم وإلهامهم وآرائهم . وبهذه الألقاب يمتد الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ويصبح أوسع في أثره على الحياة الاسلامية ويحقق لنفسه المعنى الجامعي

وفي تلك السبيل يجب على الأزهر أن يختار أياما في كل سنة يجمع فيها من المسلمين ( قرش الاسلام ) ليجد مادة النفقة الواسعة في نشر دين الله . وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسط يده ، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه في الامم الاسلامية ونواحيها الكبرى وخاصة موسم الحج . وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل في تنبيه الشعور الاسلامي وتحقيق المعاونة في نشر الدين وحياطته ، وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها ، وعسى أن يكون ( قرش الاسلام ) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أي الأحوال صلة روحية تجعل الأزهر كأنه معطيه لكل مسلم لا آخذه .

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين اهتداء الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين « وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » .

( طنطا ) مصطفى صادق الرافعي